ظاهرة الحزن في شعر سعد العوفي ديوان (البلبل الأسير) أنموذجًا
دراسة في البواعث النفسية والسمات الفنية

The Phenomenon of Sadness in Saad Al-Outfi's poetry (Al-Bulbul Al-Aseer) as a Model A Study on Psychological Motives and Artistic Features

10.35781/1637-000-0111-006

د. عبدالرحمن بن مناور الحربي

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز ظاهرة الحزن في ديوان (البلبل الأسير) من خلال استكشاف البواعث النفسية والسمات الفنية، والربط بينهما. وسعيًا لتحقيق هذا الأهداف أقمت البحث على المنهج الوصفي التحليلي مع الاستعانة بالمنهج النفسي في الكشف عن بواعث الحزن، دون أن أغفل المنهج السيميائي في معالجة توظيف عناوين القصائد. وجاءت الدراسة مقسمة إلى مقدمة، وتمهيد، وفصلين، ففي الفصل الأول تناولت بواعث الحزن في ديوان البلبل الأسير، وهي بواعث سياسية واجتماعية وثقافية، بالإضافة إلى البواعث الذاتية، أما الفصل الثاني فقد عالجت فيه آليات التعبير عن الحزن في الديوان من خلال لغة الحزن، والحديث عن أسلوب الشاعر، واستدعائه للنصوص الدينية، وتوظيفه لعناوين القصائد. وانتهيت من ذلك إلى الخاتمة وفيها خلاصة البحث، وأهم النتائج التي توصل إليها الباحث، ومن أبرزها: تعدد بواعث الحزن في الديوان نتيجة لعوامل سياسية، واجتماعية، وذاتية، واتسام لغة الشاعر بالسهولة والقرب، واتصالها بمعجم تراثي يقوم على جزالة اللفظ وقوة الجرس.

الكلمات المفتاحية: ظاهرة الحزن، ديوان البلبل الأسير، البواعث النفسية، السمات النفسية.

ISSN : 2410-1818

Abstract

This study aims to highlight the phenomenon of sadness in the poetry collection Al-Bulbul Al-Aseer by exploring its psychological motives and artistic features, establishing a connection between the two. To achieve these objectives, the research adopts a descriptive-analytical approach while incorporating psychological analysis to uncover the motives of sadness. Additionally, the semiotic method is employed to analyze the poet's use of poem titles .

The study is divided into an introduction, a prelude, and two chapters. The first chapter addresses the motives of sadness in Al-Bulbul Al-Aseer, which include political, social, cultural, and personal factors. The second chapter examines the mechanisms through which sadness is expressed in the collection, focusing on the language of sadness, the poet's style, references to religious texts, and the use of poem titles .

The study concludes with a summary of the research findings, the most significant of which include the multiplicity of sadness motives in the collection due to politic al, social, and personal factors. Furthermore, the poet's language is characterized by simplicity and accessibility, and its connection to a traditional lexicon characterized by the eloquence of expression and the resonance of internal rhythm .

Keywords:

The phenomenon of sadness, Al-Bulbul Al-Aseer, psychological motives, artistic features

ISSN : 2410-1818

المقدمة

الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وخاتم رسله، وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد:

يعدّ الحزن محورًا أساسيًا في التجربة الإنسانية التي تعبر عن طبيعة الحياة وتقلباتها، فما بين انشراح النفس وانقباضها، وانتصارها وانكسارها، وقوتها وضعفها، يتشكل الوعي وتنضج التجربة، ويتحقق التوازن النفسي الذي يعيد الإنسان إلى ذاته ويمنحه القدرة على التأمل وتقدير الأمور، والتعامل بفهم عميق مع " أزمة الحياة وما فيها من خير وشر وورد وشوك، وأمل ويأس، ونور وظلمة، وسرور وحزن فليست حياة الإنسان مشرقة دائمًا، ولا ظلمة دائمًا، بل تلتقي فيها الصفحتان، تارة تكون نقية مشرقة وتارة تكون كدرة قاتمة"[1]. لقد أصبحت هذه الحياة وما طُبعت عليه من كدر مادة خصبة للشعراء ومنبعًا متدفقًا لإبداعاتهم وميدانًا فسيحًا تلتقي فيه تجاربهم الإنسانية للتعبير عمّا يعتمل في صدورهم ويثقل كواهلهم؛ تخففًا من وطأة الألم، وتحريرًا لمشاعرهم المكبوتة التي تعجز اللغة العادية عن التعبير عنها بعمق ووضوح، ومن هنا أعادوا تشكيل الحزن من مجرد شعور وقتي إلى مادة خصبة للإبداع، وجسر للتواصل مع ذواتهم والآخرين، وفضاء رحب للتعبير عن رؤيتهم للحياة بصورة فنية ومؤثرة.

لقد ظلّ الحزن شعورًا أصيلًا في الشعر العربي، وجزءًا لا يتجزأ من تجربة الشعراء، لاسيما في الشعر المعاصر حيث استفاضت نغمته " حتى صارت محورًا أساسيًا في معظم ما يكتب الشعراء المعاصرون من قصائد"[2] ولعلّ ذلك يرجع إلى تبلور أبعاد جديدة وتحولات متسارعة تتصل بالمتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي أفرزت واقعًا مليئًا بالأزمات والصراعات، وعمّقت من مشاعر الحزن وتنوعها وتعقيدها.

ومن هذا المنطلق توخى الباحث النظر في ظاهرة الحزن التي شكّلت سمات وخصائص ديوان (البلبل الأسير) وتلمس بواعثها المتعددة لدى الشاعر، والكشف عن الأفكار والرؤى، والمشاعر والانفعالات التي اكتنفتها نصوص الديوان، والتعرف على الأبعاد الجمالية والفنية التي بلورت هذه الظاهرة.

ويمكن القول إنّ أهمية البحث تكمن في أصالة موهبة الشاعر، وعمق تجربته الشعرية، وتعدد بواعث حزنه بدأ من معاناة اليتم والفقر، والنزوح عن مسقط رأسه ومفارقة والدته في سن مبكرة، ثم مكابدته للحياة وتحدياتها؛ لا سيما تجرعه مرارة الفقد بتوديع بعض أبنائه وأحفاده، فضلًا عن قضيته الأولى التي نافح عنها طيلة حياته والمتعلقة بأوجاع أمته الإسلامية وما قاسته من حروب ونكبات.

(1) دراسات في الشعر العربي المعاصر، شوقي ضيف، دار المعارف، ط7، ص105.
(2) الشعر العربي المعاصر، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط3، ص352.

ISSN : 2410-1818

إنّ كل تلك البواعث آخت بين مشاعر الحزن في الديوان، مفضية إلى إفراز معجم يتقاطع الألم فيه مع الغضب، ويتنازع فيه اليأس والأمل، وهي مشاعر إنسانية سامية، تمخضت عن شاعر فذّ دلّ على رقة حسه من جهة، وعلى نبله ووفائه من جهة أخرى.

ولم أجد-حسب اطلاعي- سوى دراسة يتيمة تناولت شعر سعد العوفي وهي دراسة تقدّم بها الدكتور: عبدالرحمن المطرّي بعنوان (النزعة الإنسانية في شعر سعد العوفي الرؤية والتشكيل الفني) في مجلة القراءة والمعرفة، العدد199 ، 2018م. تتبع فيها القضايا الإسلامية والعالميّة التي تناولها الشاعر في دواوينه الثلاثة (ملاحم الشرف) و (بركان الغضب) و (بيد أخي قتلت) وهو بحث لم يتطرق إلى ظاهرة الحزن عند الشاعر فضلًا عن عدم معالجته لديوان (البلبل الأسير).

واقتضت طبيعة الدراسة أن تقسّم إلى مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة. أما المقدمة فتحدثت فيها عن أسباب اختيار الموضوع وأهميته، والدراسات السابقة، ثم عرضت خطة البحث، ومنهجه، وخصصت التمهيد للحديث عن العوفي حياته وشعره، وكذلك مفهوم الحزن في الدلالة والمصطلح.

وأفردت الفصل الأول للكشف عن بواعث الحزن في الديوان محل الدراسة، وإظهار تنوعها ما بين البواعث السياسية، ثم الاجتماعية والثقافية، وانتهاء بالبواعث الذاتية. ثم كان الفصل الثاني لمعالجة آليات التعبير عن الحزن في الديوان، من خلال دراسة جملة من الخصائص الأسلوبية، وتوظيف عناوين القصائد. وانتهيت من ذلك إلى الخاتمة وفيها خلاصة البحث وأهم النتائج والتوصيات.

وأقمت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي في جمع المادة العلمية وتصنيفها وبيان قيمتها من الناحتين الأدبية والفنية، دون أن أغفل بعض الملامح النفسية في الكشف عن بواعث الحزن في الديوان متخذًا من السيميائية رافدًا مهمًا في معالجة عتبات النص لاسيما دراسة العنوان.

التمهيد:

أ-سعد العوفي حياته وشعره:

هو سعد بن سعيد العوفي، ولد عام 1342هـ أو 1345هـ -حسب ترجيحه- وكان مولده في (ذات الشلايل) جنوب غرب المدينة المنورة، نشأ يتيمًا في كنف والدته تحوطه بالرعاية والعناية ردحًا من الزمن، ثم انتقل إلى المدينة المنورة؛ ليتتلمذ فيها بمدرسة (دار الأيتام) والتي كان لها أكبر الأثر في صياغة شخصيته وتكوينه الأدبي، يدلّنا على ذلك ثناؤه عليها، وانتفاعه بأساتذتها وعلى رأسهم الأديب الكبير محمد حسين زيدان، ولمّا شبّ عن الطوق التحق بالسلك الحكومي فشغل عدة وظائف في مدن شتى من المملكة؛ طلبًا للرزق وخدمة للوطن، وبعد إحالته إلى التقاعد استقرّ به المقام في المدينة المنورة ولم يزل مقيمًا بها.

ISSN : 2410-1818

يعد العوفي من التيار المحافظ الذي ينزع إلى التمسك بتقاليد القصيدة العربية القديمة إيقاعًا ولغة وتصويرًا وقد صدر له خمسة دواوين، وسيرة ذاتية، استطاع من خلالها أن يثري الساحة الأدبية والثقافية وسأجمل ذكرها على النحو التالي: ديوان ملاحم الشرف (1405هـ) وديوان بيد أخي قتلت (1407هـ) وديوان بركان الغضب (1409هـ) وديوان على مدارج الزمن(1440هـ) وديوان البلبل الأسير (1440هـ) وسيرة ذاتية: مسيرة على الأشواك (1438هـ) [3].

ب-الحزن في الدلالة والمصطلح:

جاء في لسان العرب " الحُزْنُ والحَزَنُ: نقيض الفرح، وهو خلاف السُّرور..وقد حَزِنَ، بالكسر، حَزَناً وتحازَنَ وتحزَّن. وَرَجُلٌ حَزْنانٌ ومِحْزانٌ: شديد الحُزْنِ... وعام الحزن العام الذي ماتت فيه خديجة، رضي اللَّه عنها، وأبو طالب فسمّاه رسول اللَّه ﷺ عام الحُزْنِ"[4]وأصل الكلمة يدل على خشونة الشيء وشدّة فيه. وقد وردت لفظة الحزن في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (سورة يوسف: 86) وكان قبلها عليه السلام قد ابيضت عيناه من الحزن من شدة جزعه وحزنه على ابنه يوسف عليه السلام، وفي قصة نبي اللّه موسى قال سبحانه: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (سورة طه:40) وغيرها من آيات كتاب الله، كما جاءت لفظة الحزن في الحديث النبوي من ذلك قول النبي ﷺ حينما ابتلي بوفاة ابنه إبراهيم: (إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، والقَلْبَ يَحْزَنُ، ولَا نَقُولُ إلَّا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وإنَّا بفِرَاقِكَ يا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ)[5].

ومفهوم الحزن في كتاب (الكليّات) هو أنّه:" غمّ يلحق من فوات نافع أو حصول ضار"[6] كما عرّفه صاحب (المعجم الفلسفي) بأنه: "ألم نفساني يغمر النفس كلها، ويرادفه الهمّ والغمّ والكآبة... وهو إما أن يحصل للنفس بالعرض لوقوع مكروه أو فراق محبوب، وإما أن يحصل لها بالطبع لانطواء مزاجها على القلق والاضطراب"[7]. ومهما يكن من أمر فإنّ الحزن يعد قوة إبداعية تعكس تجارب إنسانية عميقة تتغلغل في صميم الذات وتدفع المبدع إلى التعبير عن مشاعره الدفينة من خلال إعادة إنتاج الألم والمعاناة إلى عمل فني يتسم بالجمال والتأثير، متجاوزًا بذلك مجرد البوح والتنفيس إلى مشاركة المتلقي هذه التجربة الحية المؤثرة.

(3) ينظر: مسيرة على الأشواك، سعد العوفي، 1438هـ، وكذلك: الغلاف الأخير من ديوان (البلبل الأسير)، وينظر كذلك: النزعة الإنسانية في شعر سعد العوفي الرؤية والتشكيل الفني، عبدالرحمن دخيل ربه المطرفي، مجلة القراءة والمعرفة، العدد199، 2018م، ص:111.

(4) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط6، 3-109/4.

(5) صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب، دار ابن كثير، ط5، 39/1.

(6) الكليّات، لأبي البقاء الكفوي، اعتنى به: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط2، ص428.

(7) المعجم الفلسفي، جميل صليبيا، الشركة العالمية للكتاب، 1994م، 466/1.

ISSN : 2410-1818

الفصل الأول: بواعث الحزن في ديوان البلبل الأسير.

1- البواعث السياسية:

ظلّ الشاعر مهمومًا بقضايا أمته وفيًا لأوجاعها وآمالها، يحمل بين جوانحه مسؤولية وجدانية عميقة تجاه ما تعانيه من نكبات وأزمات، يتألم من مشاهد ظلمها وضعفها، واستباحة مقدراتها، ويتماهى مع جراحاتها مستشعرًا أنه جزء لا يتجزأ من جسد أمته، فيقول معبرًا عن هذا التماهي:

إنّي حملتُ همومَ أُمةِ أحمد ... جُمعت مُدىً دَأبت تَشكُ خَواصِري

❖❖❖

فإذا تأوّهَ مسلمٌ مِن نكبةٍ ... ألفيتَني المطعونَ بينَ عَشائِري

❖❖❖

أَبكي دَمًا يَنثالُ شِعرًا باكيًا ... والشّعرُ روحٌ لا مِدادَ محابرِ [8]

❖❖❖

إنّ هذا الحزن المشترك الذي تتشابك فيه الأوجاع والخيبات، ويتجسد من خلاله مفهوم الوطن الواحد استحضره الشاعر في ندائه لبغداد، قائلًا:

بَغدادُ ما بَالُ الكَوارِثِ تَكبرُ ... ويَطولُ ليلُكِ واللَّيَالي تَقصُرُ

❖❖❖

يا دُرّةَ الأمصَارِ لا كَانَ الأسَى ... بِنَا مِثل مَا بِكِ في الجَوانحِ يُسعَرُ [9]

❖❖❖

وقد كان لمأساة الشعب الفلسطيني وما نزل به من ضروب البلاء والتنكيل والقتل والتهجير، أثر كبير في شعر العوفي، فالمتتبع لقصائد الديوان يجد المأساة الفلسطينية ماثلة أمامه في كل نص يتناول قضايا الأمة ففي قصيدة (محرقة النازي الجديدة) اتخذ الشاعر من إمعان جيش الاحتلال في البغي والعدوان موضوعًا له، وهي قصيدة تتناول وحشية الممارسات الصهيونية في ارتكاب المجازر، وفرض حصار مشدد على شعب أعزل يتساقط أحياؤه واحدًا تلو الآخر بسبب الجوع والعطش والمرض، يقول الشاعر واصفًا هذه القسوة وتلك الوحشية:

لتُسَائِلِ التّاريخَ هَذي الأَسطُر ... والنّارُ في شَعبِ البَسَالةِ تُسعرُ

❖❖❖

والنّاسُ كلُّ النّاسِ ترقُبُ هَولَهَا ... والدُّورُ تُنسَفُ والبَواسلُ تُقبرُ

❖❖❖

(8) ديوان البلبل الأسير، ص 89.
(9) السابق، ص51.

ISSN : 2410-1818

والماءَ لاَذَ والدَّواءُ محرمٌ والحيُّ يقتلهُ حِصَارٌ أعسَرُ

❖❖❖

وتتخذ القصيدة منحى آخر تركز فيه على جلد الذات وتوصيف الداء، بنبرة يعلوها الإحباط واليأس؛ إذ يبدو الشاعر ناقمًا على خنوع جيله، يائسًا من يقظته، مستحضرًا في ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام وكيف استبد بهم الوهن والاختلاف. إنّ هذا الحزن الطاغي أفضى بالشاعر إلى بعث رسالة استغاثة وتحذير للأجيال الناشئة، يدعوهم فيها إلى اقتحام ميادين العزة وكسر أغلال الذل، وألا يعيدوا تجربة جيله الجاثم منذ زمن بعيد في ظل أوهام السلام، ومصانعة المحتل خوفًا وعجزًا، والاكتفاء بعقد مؤتمرات وإصدار بيانات تنديد وشجب لتلك المجازر التي طالت (جنين) وغيرها من المدن والقرى الفلسطينية واصفًا تلك المجازر بالمحرقة الحقيقية التي حدثت على مرأى ومسمع من العالم:

يَا مُقبلَ الأجيالِ آتٍ دَوركمْ فَتَبصرُوا في أَمركُم وتَدَبّرُوا

❖❖❖

لَيسَ جَدِيدًا ما نَراهُ تذَكرُوا في الجَاهِلِيةِ كَانَ يُعبَدُ قَيصرُ

❖❖❖

العزُّ في ظلِّ الهَوانِ مَذلةٌ والذُّلُ في سُبلِ الكَرامةِ سُكَّرُ

❖❖❖

في جِيلنَا الآمَالُ بُدّدَ شملهَا فَلعلّ في أَجيَالِكمْ مَا يُبهِرُ

❖❖❖

(هلوكوست) محرقةُ اليهودِ خُرافةٌ لكن (جِنِينَ) بها تُحَسّ وتُبصرُ[10]

❖❖❖

إنّ سمة الالتزام التي اتسم بها العوفي تجاه القضايا الكبرى التي تؤرق أمته ألقت بظلالها على تجربته الشعرية وكأنها ظل دائم يرافقه أينما حلّ، وحزن متأصل في أعماقه لا يستطيع الانعتاق عنه حتى في لحظات تأمله واستمتاعه؛ لذا يعمد إلى خلق تناقض بين الجمال الخارجي، وما تنطوي عليه نفسه من ألم ممض، مما يضفي على شعره بعدًا تأمليًا تتداخل فيه مشاعر الأسى بالطبيعة الخلابة، ففي قصيدة بعنوان (الطيور المهاجرة) استهلها بقوله:

في كُلّ عَامٍ رِحلةٌ ومَعَادُ أَلديكِ شَوقٌ عَارمٌ يَزدادُ[11]

❖❖❖

(10) ديوان البلبل الأسير، ص60-61.
(11) السابق، ص12.

ISSN : 2410-1818

يتطرق الشاعر إلى وصف الرحلة الجمالية لهذه الأسراب المهاجرة وما قد تتعرض له من مخاوف لاسيما من أرباب الصيد الجائر، فيقول:

إنّي ليَأسِرُنِي جَمالكِ سَابحًا وعُروضُ أَجوَاءٍ لديكِ تجادُ

❖❖❖

ويَشُوقُني التّغريدُ فَجرًا أو ضُحىً أنَّى سَجعتِ يَروقُني إنشَادُ

❖❖❖

وأحسُّ نارَ الحُزنِ بين جَوانِحِي في كُلّ فاجعةٍ بها تُصطَادُ

❖❖❖

ويَحزُّ في نَفسِي ويُلهبُ خَاطِري كَون الجَمالِ من الوجودِ يُبادُ

❖❖❖

ثم يتوسل بهذه اللوحة للتعبير عمّا يساوره من هموم وآلام تجاه أمته، قائلًا:

تِلك الفرائِسُ شِبهُ أُمةِ يَعربٍ بَاتتْ طَرائدُ تشتَهَى وتُصَادُ

❖❖❖

لا تَدفعِ الضّراءَ عن أسْرابهَا فَتُجَندلُ الأفواجُ والأفرادُ

❖❖❖

وعلى منوال القصيدة السابقة يقول في قصيدة بعنوان (مناجاة):

غَنِّ يا طيرَ المروجِ النَّاضِرهْ غَنِّ للدُّنيَا بنفسٍ رَاضِيهْ

❖❖❖

غَنِّ جَذلانًا ولا تَحفل بما قَد مَضى والمزعِجَات الآتيهْ[12]

❖❖❖

تنطوي القصيدة على لون من التداخل والتناقض، والاتكاء على عقد المقارنات لإحكام الفكرة وإظهار المفارقة، ففي مستهل القصيدة يشدو طائر بألحانه دون خوف أو قيد، وحين يتوجس من خطر ما يسارع إلى أغصان الأشجار، متخذًا منها ملاذًا آمنًا تواريه من سطوة الطيور الجارحة التي تتشد الظفر ولو بطائر واحد، ثم ما يلبث إلا قليلًا حتى يستعيد حياة الغناء والحرية. لقد صور الشاعر مشهد هذا الطائر إزاء أمة تعاني وطأة الموت تحت راجمات الصواريخ التي لا تميز بين صغير وكبير حيث لا مفر من الموت، فالناس يفقدون أرواحهم دفعة واحدة في لحظة تجسد أبشع صور الموت الجماعي، ثم لا

(12) ديوان البلبل الأسير، ص8.

ISSN : 2410-1818

تهدأ غارة إلا وقد شُنت أخرى، يقول الشاعر:

عَن فلسطينَ ومَا حَلّ بها وبِلادِ الرّافدينِ الجَاثيهْ

❖❖❖

قَاذفاتُ النّارِ لم تُبقِ بها طفلةً تَحبو وأُمًا بَاكيهْ

❖❖❖

غَارة الشّيهانِ تَفري واحدًا وهُنا آلافنَا في ثَانيهْ

❖❖❖

أنتَ تحميكَ غُصونٌ جَمةٌ ورفَاقِي مَا لهم مِن حَاميهْ

❖❖❖

تُضرمُ النّارُ في أجسَادِهم فإذا هُم مِزقًا مُتراميَهْ

❖❖❖

ويختم الشاعر هذه المقارنة بمفارقة ملؤها الإحباط واليأس وقد استوت عنده النشوة بالبكاء؛ مما أفضى به إلى حالة من موت الشعور، وفقد القدرة على التفاعل مع الحياة:

غَنِّ يا طيرُ تَساوى عِندنَا نَغمةٌ جَذلى وأُخرى بَاكيهْ

❖❖❖

ويشكّل الدعاء حضورًا بارزًا في ديوان الشاعر؛ إذ يعكس مدى ارتباطه الروحي بأمته، ويشير في الوقت ذاته إلى تدفق مشاعر الشفقة والرحمة، والتمرد على الألم من خلال مناجاة صادقة تتجاوز المستوى اللفظي إلى مستويات وجدانية عميقة تذوب فيها الحدود بين الشاعر والقارئ، فيتحول الدعاء إلى لون من ألوان الوحدة والتضامن، والتجربة الشعورية الحيّة، يقول:

يا مُنشئ الأكوانِ يا مَن يُستجارُ بهِ أنتَ المغيثُ أوانَ الحادثِ الأزمِ

❖❖❖

يا عَالم السّرِ لا تخفاكَ غَائبةٌ يا عالم الحالِ قبل النّطقِ بالكَلِمِ

❖❖❖

تَدارك الأُمة الوسطَى فَقد غَرقتْ في لُجةٍ ازبَدت بالموجِ مُلتطمِ

❖❖❖

ضَاقت بها الحَالُ فالأكبادُ داميةٌ والجَو يَقذفُهَا كسفًا من الحممِ[13]

❖❖❖

(13) ديوان البلبل الأسير، ص73.

ISSN : 2410-1818

وعطفًا على ما سبق فإنّه يمكننا القول إنّ الشاعر كشاهدٍ عاين تاريخ أمته المثخن بالجراح، ظلّ وفيًا لقضاياها باعتبارها محورًا رئيسًا من محاور شعره، حيث جادت قريحته بقصائد تنعي وطأة البؤس وقسوة الحرمان، وتسعى في الوقت ذاته إلى توثيق هذه المآسي في الذاكرة الجمعية، وتنفخ جذوة الشعور في وجدان الأجيال القادمة، وتُخلّد تلك التضحيات التي بُذلت من أجل عزة الأمة وكرامتها.

2-البواعث الاجتماعية والثقافية:

يعد المجتمع في ديوان (البلبل الأسير) مصدرًا ثرًا من مصادر الإلهام التي استمد منها العوفي تجربته الشّعرية مجسدًا بذلك حالة من التفاعل المستمر مع معطيات الحياة وهموم المجتمع، ومعبرًا عن مشاعر الارتباط والتواصل وعدم الانفصال عن واقعه؛ مما يشي برهافة حسه ووعيه بقضايا عصره، فالأديب البارع" لا بد أن يستوحي مضمون أعماله من المجتمع الذي يعيش فيه، ويتأثر بأحواله وملابساته في أثناء قيامه بعملية الإبداع الفني، وذلك أن الأديب-وهو الضمير الواعي لمجتمعه- لا بد وأن يبلور وجدانه ويضع يده على نقاط الضعف والقوة"[14]. إنّ هذه البواعث الاجتماعية تدخل في إطار التوجه التربوي والأخلاقي الذي عُني بها التيار المحافظ في الشعر العربي، فرأوا ضرورة أن يوجه الشعر إليها [15]، وأن يتردد في ثناياه المعاني التي تقوّم المجتمع، وتنشر الأخلاق السامية الرفيعة.

لقد تبلورت بواعث الحزن الاجتماعي والثقافي عند الشاعر في صور نقده لبعض الظواهر السلبية، أو رغبته في التغيير، وذلك من خلال لغة تراوحت بين الحدّة والحسرة، فالراصد للديوان يجد عددًا من القصائد التي عالجت بعضًا من الموضوعات المتصلة بالواقع الاجتماعي حيث أصبحت الظواهر المؤسفة التي أفرزتها الحياة الاجتماعية محط اهتمام الشاعر، فمن تلك الظواهر على سبيل المثال، قصيدة بعنوان(ضياع)[16] وهي قصيدة اتخذت منحى قصصي في تناولها للقنوات الفضائية التي لاقت قبولًا واسعًا في ذلك الزمن؛ مما تسبب في إهدار النشء لطاقاتهم وقدراتهم، والانغماس في سفاسف الأمور التي تحجب الوعي، وتستهلك العقول، وتحول دون الترقي في مدارج العلم، يقول الشاعر:

لَدى شَاشةِ التّلفازِ أمضى حياتَهُ ... صَبيًا بلا رُشدٍ إلى أن غَدا كَهْلَا

❖❖❖

قَضى سَائرَ الآناتِ في غيرِ رحمةٍ ... فَلذتُهَا في كُلّ شَارقةٍ أحلَى

❖❖❖

(14) التفسير العلمي للأدب: نحو نظرية علمية جديدة، نبيل راغب، المركز الثقافي الجامعي، ص139.
(15) ينظر: الأدب العربي الحديث، محمد صالح الشنطي، دار الأندلس، ط5، ص109.
(16) ديوان البلبل الأسير، ص38.

ISSN : 2410-1818

وفيها يقول:

ويُنفقُ ربّ (الدّشِ) أيامَ عمرهِ يُلاحقُ أشباحًا بها نَفسهُ جَذلَى

❖❖❖

أَسفتُ على هذا الشّبابِ تُضيعهُ سَفاسِفُ لهوٍ لم تكن عُرفت قبلَا

❖❖❖

وأرثِي لذي عقلٍ يبيعُ حياتهُ ويرَضى بها دُونًا وموضعهَا أعلا

❖❖❖

ومن الظواهر المؤسفة التي أصبحت سببًا في بؤس المجتمع، وهاجسًا مؤرقًا لكل أسرة سعودية الاستهانة بقيادة المركبات، فقد باتت الطرق مسرحًا لاصطياد أحلام هذه الأسر؛ لكثرة ما خلفت من دماء مسفوكة وما تركت من ندوب دامية لا تلتئم في صدور من فقدوا أحبتهم، وهنا يتناول الشاعر بحرقة تبعات الحوادث المرورية وما ترتب عليها من عواقب وخيمة، قائلًا:

فكم أفنت كَلمحِ الطّرفِ بيتًا هنيئًا كانَ يَنعمُ بارتياحِ

❖❖❖

وكمْ من قادرٍ أمسَى طَريحًا مَعُوقًا أو قَعيدًا غير صَاحِ

❖❖❖

وذاكَ مُشوهًا في النّاسِ أضحَى يُعاني الهولَ مِن ألم الجِراحِ

❖❖❖

ويُحزنني البريءُ جَنى عليهِ مُفرِّطُ جاءَ بالكربِ المتاحِ[17]

❖❖❖

وفي سياق البواعث الاجتماعية يُظهر الشاعر قدرة فائقة على تحويل المعاناة الشخصية إلى إطار نقدي أوسع، تتشابك فيه البواعث الذاتية والاجتماعية، ويختلط الهمّ الفردي بالمجتمعي؛ مما يمنح النص لونًا من ألوان القبول والتأثير لدى النسيج الاجتماعي الذي يعاني من المشكلات ذاتها، وقد كانت المملكة حين كتابة تلك القصائد تخطو خطواتها الأولى في تحديث الأنظمة وصناعة مستقبل أكثر مرونة وابتكارًا.

لقد توسل الشاعر بالشكوى لكشف سوء مظاهر البيروقراطية واللوائح المعقدة التي عطلت المصالح وزادت من مشاعر الإحباط في بعض الدوائر الحكومية، فمن ذلك قوله في قصيدة يعبر فيها عن شعوره بالعجز أمام اجراءات متراكمة لا تراعي عوزه وشيخوخته، فيقول مخاطبًا مسؤول هذه الدائرة:

(17) ديوان البلبل الأسير، ص25.

ISSN : 2410-1818

يا مَعاليَ الأَمينِ اللّهُ أَكبرْ أنا في مُلكِي الصَريحِ أُعَزّرْ

❖❖❖

قَد يَكونُ النّظامُ مصداقَ عزٍ ويَكونُ النظامُ أسّ التَّأخُّرْ

❖❖❖

لا تَلمني إذا استُثيرَ شُعوري واطِئ الجمرِ لا يُطيق التّصبرْ[18]

❖❖❖

وفي خاتمة القصيدة يطلق الشاعر دعوة صريحة لمعالجة هذه الإجراءات المعقدة وبناء أنظمة تواكب ركب التطور، وتدعم تطلعات المجتمع:

إن تمَادت أُمورنَا في تَردٍ حَادَ عن نهجنَا قِطار التّطورْ

❖❖❖

وبأسلوب نقدي ساخر يظهر الشاعر حسرته على إهدار التقنية في بعض المؤسسات، وفقد فرص استثمارها لرفاهية المجتمع، وتحولها من أداة للإنجاز والإنتاج إلى عبء ينم عن سوء التخطيط، وعدم كفاءة الاستخدام، يقول في هذه القصيدة:

عَجبتُ: أكلُّ ذا يَجري مِن الحاسُوبِ أو يُجرى

❖❖❖

حَسبناهُ عَصا موسى أماتَ بُروزهَا السَحرَا

❖❖❖

وإذْ بالسحرِ موجودٌ يحوّلُ خِصبهَا صَحرَا

❖❖❖

ويَخطو عَصرنَا مِيلًا لنَخطُو خلفهُ شِبرَا [19]

❖❖❖

ونجد هذا النَّفس في قصائد أخرى كقصيدة بعنوان (هموم زراعية) [20] وأخرى بعنوان (الروتين واللوائح)[21].

وإزاء تردي الحالة الثقافية واختلال ميزان الوعي في المجتمع، يعلو إحساس الألم والغربة لدى الشاعر حين يشاهد (كرة القدم) وقد مُنحت الشهرة والاحتفاء والتكريم، في الوقت الذي يعاني فيه الأدباء

(18) السابق، ص20.
(19) ديوان البلبل الأسير، ص47.
(20) السابق، ص56.
(21) السابق، ص69.

ISSN : 2410-1818

من الإهمال والفقر وضيق اليد بعيدًا عن الاعتراف والتقدير الذي يمكنهم من أداء رسالتهم الأدبية.

ففي قصيدة بعنوان (ظهور آفة وموت ثقافة) يكشف عن مفارقة تعكس تناقضًا جليًا في القيم والأولويات يقول الشاعر:

قَالوا: الرياضةَ والرياضةُ منهلٌ ... دَعْ غيرهَا لعناكِبٍ وغُبارِ

❖❖❖

ودعِ الأديبَ لفقرهِ وخُمولهِ ... دَعهُ وموتُ البُطءِ في الأشعارِ

❖❖❖

لو كانَ يلعبُ في فريقٍ أمطَرتْ ... دُنياهُ بالمليونِ والمليارِ[22]

❖❖❖

وفي السياق ذاته يتطرق الشاعر إلى (أدباء الظّل) الذين يكافحون بصمت وعزلة دون أدنى تقدير من الصحف ووسائل الإعلام لنتاجهم الأدبي، وانشغالهم بأسماء لامعة لا يمثل أدبهم قيمة حقيقة؛ بل هو أدب مبتذل يفتقر إلى الموهبة والإبداع، يقول الشاعر:

سَيكتبُ في الظّلِ مَن لم يجدْ ... له قَارئًا مُنصفًا في الضّياءْ

❖❖❖

إذا قالَ قولًا رصينَ الجذورِ ... أزاحوهُ واستَمتَعُوا بالهُراءْ

❖❖❖

صَحافَتهم تكتمُ أنفاسهُ ... وإن كانَ صنّاجة البُلغاءْ[23]

❖❖❖

وعطفًا على ما سبق يتجلى التصاق الشاعر بمجتمعه ووعيه بالقضايا التي تعيق مسيرة التطور والنمو وتركن إلى الجمود والجهل؛ يدفعه إلى ذلك إحساسه بالمسؤولية المجتمعية، ورغبته الملحة نحو التغيير والإصلاح.

3-البواعث الذاتية:

وأقصد بها بواعث الحزن الشخصية التي ارتبطت باليتم والفقد، وتأمل الذات، وهي بواعث أضفت على تجربة الشاعر عمقًا وتأثيرًا، ومنحتها طابعًا إنسانيًا صادقًا مسّ من خلالها وجدان القارئ، وأوجد مساحة من التواصل العاطفي بينهما.

(22) السابق، ص23.

(23) ديوان البلبل الأسير، ص27.

ISSN : 2410-1818

لقد شكّلت مدرسة (دار الأيتام) ملاذًا آمنًا للشاعر، وفتحت آفاقًا واسعة يستكشف من خلالها عوالم لم يكن يحلم بها يومًا، فكانت بمثابة أم رؤوم، وبيئة دافئة خففت عنه وطأة اليتم، وأخذت بيده من الحيرة والضياع حين وجهته نحو المستقبل بأمل وثقة، يقول العوفي مخاطبًا هذه المدرسة:

أُمّاهُ يا مَن حَققتِ أحلامي ومَحى حَنانكِ قَسوةَ الأيّامِ

❖❖❖

ونَشلْتِني من وَهدةِ البؤسِ الذي نَهشت ضَراوتها نخاعَ عِظامي

❖❖❖

قد كنتُ في بيداءَ قَفرٍ مُوحشٍ خلفي هَلاكٌ محدقٌ وأمامِي

❖❖❖

حَرّ السمومِ لظاهُ يحرقُ هيكلًا يمشي بلا هَدفٍ إلى الإعدَامِ[24]

❖❖❖

ثم يشير الشاعر إلى إخوة المعاناة والفقد الذين هيأت لهم المدرسة بيئة مستقرة انعكست على تضامنهم في مواجهة التحديات والصعوبات:

وبجَانبي جَيشٌ عَرمرمُ هَمهم همَي.. أشقاءٌ من الأيتامِ

❖❖❖

البؤسٌ والحرمانُ آخَى بيننَا وهنا التآخِي حَلّ في الإنعامِ

❖❖❖

لقد تجلت مظاهر الحزن في الديوان من خلال شعر الفقد الذي تجسد في ثقل الألم وعظم المصاب بصورة تهز القلوب، وتفيض بالحزن والانكسار، حيث فُجع الشاعر برحيل بعض أبنائه وأحفاده، وهو رحيل انتزع جزءًا من روحه وقلبه. فمن خلال استظهار الديوان نجد البكاء المرير واللوعة الحارقة تتبدى في مقدمات رثائه لأحفاده، إلا أن خواتيم هذه القصائد تمثل تحولًا روحيًا ملؤه السكينة والرضا بقضاء الله وقدره، فمن ذلك استهلاله لقصيدة مؤثرة نعى فيها حفيده (زياد) أطال فيها التوجع وإظهار الألم وقد توقفت الحياة واستحالت إلى لون قاتم نزعت منه الملذات والرغائب:

اليومَ لا درسٌ ولا أوراقُ جلّ المصابُ وحَانَ منكَ فِراقُ

❖❖❖

غَادرتَ مدرسةَ الحياةِ ومنزلًا قد كنتَ في شِريانهِ تَتساقُ

❖❖❖

(24) ديوان البلبل الأسير، ص85.

ISSN : 2410-1818

يا مَن تَأبدَ في القلوبِ ودَادهُ مَا للحياةِ وقد فُقدتَ مَذاقُ[25]

❖❖❖

ويصفه وصفًا مؤثرًا من خلال تصوير الجسد المسجى، وكأن الحفيد يغفو إغفاءة طالب متعب بعد يوم دراسي شاق، فيناديه نداء متأمل يبقي في داخله رجاءً خافتًا بأن يجيبه ولو لمرة أخيرة، ولكن الصمت القاسي يمثل حقيقة الموت، ويوحي بمشاعر الصدمة والعجز:

وكأنمَا عيناكَ في إغفاءةٍ إثرَ الدراسةِ مسهَا إرهَاقُ

❖❖❖

وطَفقتُ أدعو: يا زيادُ فمَا هُنا ذَاكَ المجيبُ الطيّع السّبّاقُ

❖❖❖

ثم يظهر في ختامها نوعًا من التماسك والطمأنينة من خلال تطلعه للقاء الآخرة:

نَمْ يا حبيبَ الرّوحِ نومًا هادئًا حُورُ النعيمِ كُؤوسهنّ دِهَاقُ

❖❖❖

وَدعتَ دُنيانَا ما لحَيٍ عَاشهَا أَمنٌ وما لعُهودهَا ميثَاقُ

❖❖❖

منّا السّلامُ عليكَ حتى نلتقِي وإذا التقينَا فَرحةٌ وعِنَاقُ

❖❖❖

وفي قصيدة أخرى يرثي حفيدًا آخر(معاذ) ويصفه بعديل الروح، تعبيرًا عن شدة تعلقه به، يقول في مطلعها:

عَديل الروحِ عَجّلْتَ الرّحيلا وما عَايشتنَا إلا قَليلا[26]

❖❖❖

وفيها تتجلى دهشته من حقيقة الموت الذي آثر أخذ الصغير وأبقى الشيخ على قيد الحياة رغم كبر سنه وعدم قدرته على تحمل مرارة الفقد، وينطلق الشاعر من مبدأ أبوي يرتكز على التضحية بالروح لحماية صغيره، مستخدمًا دلالات حاسمة تقوم على المبادرة بالفداء وحسم مسألة المقايضة بأنه أحرى وأولى بالغياب؛ نظرًا لفارق العمر وشدة التعلق بالصبي، يقول الشاعر:

فيا عَجبًا يموتُ حَفيد شيخٍ ويبقَى الشيخُ في حُزنٍ عَليلَا

❖❖❖

(25) السابق، ص80.

(26) ديوان البلبل الأسير، 82.

ISSN : 2410-1818

ولو يُشرى الفداءُ لكنتَ تُفدَى وكانَ الكَهلُ بالأحرَى البَديلا

❖❖❖

ويخاطب حفيداً له لم يتجاوز تسعة أشهر قضى والده في حادث مروري بأبيات ملؤها الألم والشفقة:

عَمارُ مَاذا في الوجُودِ أتَعلمُ والدّمعُ حَولكَ في العيونِ يُترجمُ

❖❖❖

نَزلَ القضاءُ عليكمُ في ليلةٍ ليلاءَ والقدرُ المصيبُ مُحتّمُ

❖❖❖

فيها الأبُ الحَاني تَقَلّصَ ظِلهُ والأمُ متعبةٌ يخضبهَا الدّمُ[27]

❖❖❖

ويتلمس الجد الحاني مواطن الرحمة في هذا الفقد وهو ينظر إلى صغيره وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة بريئة تجهل هول المصاب والفقد:

يا رحمتاهُ لابنِ تسعةِ أشهرٍ رَهنَ العنايةِ بالرّضاعةِ يَحلمُ

❖❖❖

والخيرُ كُلّ الخيرِ أنكَ غَافلٌ عَمّا أَلمّ وأنّ ثَغركَ يَبسمُ

❖❖❖

لو كنتَ تُدركُ ما يَدورُ لزدتنَا ألماً لفقدِ أعزّ حَانٍ يرحمُ

❖❖❖

ثم يقول:

المشفقُونَ لديكَ جمّع شملهمْ ألمُ المصابِ فكلهُم مُتألمُ

❖❖❖

هُم لو فهمتَ مُلوعٌ في شَهقةٍ لا تنتهي ومُجالدٌ يَتكتَّمُ

❖❖❖

كَمْ صغيرٍ ذاقَ يُتمكَ نَالهَ كَرمُ الإلهِ فلازمتهُ الأنعمُ

❖❖❖

ولكلّ مَن حُرم الأبوةَ أسوةٌ جلّى يمثلها الرسولُ الأعظمُ

❖❖❖

(27) السابق، ص74.

ISSN : 2410-1818

يبرز الحزن في النص عبر مشاهد مؤثرة تتعدد أوجهها. فيبدأ الشاعر بتصوير الفقد في مشهد يفيض بالدموع، حيث تصبح الدموع لسان القلب المعبر عن وجع الفراق، فالدموع هنا روافد للألم الداخلي ورمزًا لمعاناة دفينة، تعجز اللغة عن احتوائها.

كما يستحضر الشاعر صدمة القضاء النازل فجأة في ليلة شديدة الظلام، وكأن القدر يحيط بهم دون مفر، فالليل في هذا التصوير ليس مجرد زمن، بل هو ظلام نفسي أحاط بالأرواح، وأطفأ أنوار الحياة. وتتضاعف المشاعر ألمًا في تصوير تقلص ظل الأب، إذ يعبر هذا الوصف عن الغياب الذي يترك فراغًا مهيبًا في حياة الأسرة، بينما تستنزف الأم قواها في مواجهة المصيبة، فيظهر تعبها مرآة للمعاناة الجسدية والنفسية التي تئن تحت وطئها.

ثم يتجلى مشهد الطفل البريء، الذي يعيش حلمه الصغير غافلًا عما يدور حوله. حيث يبرز التناقض الحاد بين براءة الطفل وصفاء عالمه الداخلي وبين واقع المصاب الثقيل، مما يعمق الإحساس بالحزن. والشاعر يتمنى لو أن الطفل يدرك حقيقة المأساة ليضيف إدراكه ألمًا جديدًا إلى قلوب المحيطين به، فتبدو هذه الأمنية مزيجًا من الرغبة في مشاركته الشعور، والخوف من أن تثقل براءته بحزن الحياة. هذه البراءة، على نقائها، تثير ألمًا أشد، إذ تغدو رمزًا لجهل العاجز الذي يواجه مصيرًا لا يعيه.

وفي ختام النص، يستدعي الشاعر صورة النبي صلى الله عليه وسلم، في قوله: "ولكلّ مَن حُرم الأبوةَ أسوةٌ / جلّى يمثلها الرسولُ الأعظمُ". هذه الإشارة ليست مجرد عزاء، بل هي استنهاض للنفوس لكي تتعايش مع المصاب في ضوء القدوة العظمى، حيث يجد الإنسان في صبر الرسول صلى الله عليه وسلم سراجًا يهدي النفس لتتحمل عواصف القدر.

وفي قصيدته "البلبل الأسير"[28] يقف الشاعر إزاء بلبل عذب الصوت متمليًا جماله، ومتأملًا انسجامه التام مع الطبيعة من حوله، ثم يتحول الشاعر عن هذه المتعة التي لم تدم طويلًا إلى مشهد قاتم أودع فيه الطائر قفصًا صغيرًا حتى أزهقت روحه غمًا، وهو تحول من الحرية والحياة إلى القيد والموت؛ مما يبرز جانبًا فلسفيًا يربط بين التأمل والوجدان، ويمكن قراءة المشهد على أنه إسقاط من الشاعر على تجربة خاضها وقد حاصرته قيود الحياة فمنعته من الانطلاق، وحجبت إبداعه الشعري، لاسيما وهو يصف البلبل بشاعر الطير، يقول في مطلع هذه القصيدة:

بجواري خميلةٌ ذاتِ ظِلٍ وثمارٌ وجدولٌ يَتثنَى

❖❖❖

أَلفَ الطّيرُ أيكهَا لمقيلٍ أو مَبيتٍ فَيملأُ الجوَ لحنَا

❖❖❖

(28) ديوان البلبل الأسير، ص6-7.

ISSN : 2410-1818

ثم أسهب في وصف جمال الطائر وصوته العذب حتى لحظة اغتيال هذا الجمال حين أودع في قفص قضى فيه حزنا وهو يتوق إلى الحرية، يقول في ختامها:

ذاتَ يومٍ رأيتهُ وهو مُلقَى جثةً في الطريقِ قد مَاتَ حُزنًا

❖❖❖

أجهزَ الحزنُ والقنوطُ عليه هكذا اليأسُ يقتلُ النفسَ حُزنًا

❖❖❖

لقد تضافرت بواعث الحزن في ديوان (البلبل الأسير) فأنتجت شعرًا متقد العاطفة، وشاعرًا مرهف الحس عميق التجربة، تأصل الحزن في روحه منذ طفولته حين فقد والده، ولم يمكث عند والدته طويلًا حتى أهمته دواعي العلم فاستقر به المقام ردحًا من الزمن في مدرسة للأيتام، وعانى شدة الفاقة والتنقل الدائم طلبًا للرزق، ولما علت سنه وأصبح أحوج ما يكون إلى الطمأنينة والرعاية، مُني بفقد بعض أبنائه وأحفاده، وكان قبل ذلك حين تشكّل وعيه وشب عن الطوق، امتلأت نفسه بقضايا أمته المكلومة.

الفصل الثاني: آليات التعبير عن الحزن في ديوان البلبل الأسير.

1-لغة الحزن في الديوان:

اتسمت اللغة في الديوان بالسهولة والقرب، والنأي عن التّكلف والتعقيد، فهي قريبة المأخذ لا يجد قارئها عنتًا في فهمها واستبطان معانيها، فضلًا عن اتصالها بمعجم تراثي يقوم على جزالة اللفظ وقوة الجرس، وإلى ذلك أشار الدكتور المطرفي بأن لغة الشاعر تذكره "بشعراء العصر العباسي، كما أنها شديدة الصلة بلغة الإحيائيين في مطلع العصر الحديث، كالبارودي وشوقي وابن عثيمين"[29].

إنّ الأحداث الكبرى التي ابتلي بها العالم الإسلامي فرضت على الشاعر استخدام لغة جزلة تتسم بالإيقاع الداخلي المساوق لانفعالاته، حيث تبدت جزالة الألفاظ المحملة بالشجن وثقل المعاناة في الموضوعات المتصلة بالبواعث السياسية، وجنحت في مواطن متعددة إلى لغة ساخطة، وحماسة متدفقة.

فمن أمثلة ذلك قوله في قصيدة بعنوان" شكوى إلى الله"[30]:

تَداعتِ الأُممُ الأخرَى تطِيفُ بنَا نحنُ الطّعامُ وهُم مِن حَولنَا زُمرُ

❖❖❖

حُماتهَا في دُنَا الأحلامِ غَارقةٌ تَدعو العَدو صَديقًا بالوفَا جَدِرُ

❖❖❖

(29) النزعة الإنسانية في شعر سعد العوفي الرؤية والتشكيل الفني، عبدالرحمن دخيل ربه المطرفي، ص:130.
(30) ديوان البلبل الأسير، ص18.

ISSN : 2410-1818

ذاكَ الصّديقُ يُدَجّنهم لغَايتهِ يحُددُ الخَطوَ في خبُثٍ ويَحتكرُ

❖❖❖

غَرثانَ يَستلبُ الأوطانَ في نَهمٍ فالأرضُ تَصغرُ والطّغيانُ يَنتشرُ

❖❖❖

إلى أن يقول:

تَفرقُوا نِحلًا في ظِلّهِ هَملًا كَأنْ لم تُقرأ الآيَاتُ والسُّورُ

❖❖❖

دُستورهُ غَمزةٌ مِن عَين سَيدهِ ما عَاشَ عبدٌ بسيفِ العِلجِ يَستترُ

❖❖❖

وتتغيى بعض القصائد التي امتازت بطابع نقدي حاد، التعبير عن استياء الشاعر من حالة التشرذم والتمزق التي يعيشها أبناء أمته، فضلًا عن رغبته في إيقاظ الوعي واستنهاض الهمم، فمن ذلك قصيدة بعنوان (حتى النمل يذود عن وطنه) [31] يقول فيها:

عَجبتُ لأمةٍ كالنَّملِ عَدًا تُفضلُ هَدأةً تُتلى بقتلِ

❖❖❖

تَظن هدوءَ عَاصفةٍ سلامًا ليُسلبَ حَقهَا وبكَفِ نَذلِ

❖❖❖

تُهرولُ نَحو هَاويةٍ خُطاهَا أُذلت للعَدوّ المُستحِلِّ

❖❖❖

إلى أن يقول:

هل الحشراتُ أربطُ مِنكَ جَأشًا وأَكفأُ منكَ في صَدٍ وبَذلٍ

❖❖❖

إنّ المتأمل في حقول المعجم الدلالي للبواعث السياسية يجد لغة غائرة في الحزن والغضب، جمعت بين البكاء والمقاومة في تصويرها للأحداث الدموية، وتوبيخ أبناء الأمة على تقاعسهم وإمعانهم في الخذلان. لقد أسهمت دلالات الموت والنار والتقريع في إبراز مقاصد الشاعر، وإظهار غلبة المد العاطفي عليه، ففي قصيدة "سوريا"[32] على سبيل المثال نجد أنّ معجم الحزن تشكّل في الألفاظ التالية: بكى- الدمع- يكفكف - يبث- حزنًا-شكى-بأس-المظالم-ثكلى- المحنة- لصوص-أُشعل-نيران-

(31) ديوان البلبل الأسير، ص7.
(32) السابق، ص58.

ISSN : 2410-1818

الشقاء- الخطب- بلا أمل-صرخت- قُتلت-حُر-العزم-الإباء-البسالة-هبّت-قاوم-مستبد.

وقد يتخفف الشاعر من هذه اللغة الجزلة حين معالجته للموضوعات الاجتماعية التي تتناول سوء الإدارة وتعطيل المصالح في بعض الدوائر الحكومية، فنراه يجنح إلى لغة بسيطة وواضحة تقترب في معجمها من تلك الألفاظ الشائعة في بيئته، من ذلك قوله:

أَقولُ لمن مُعاملتِي لَدَيه: أتنتهِي فَورا؟

❖❖❖

فَيرمِقنِي بناظرةٍ تُكنُّ الخُبثَ والمكرَا

❖❖❖

عَسى ولعَلَّ نُنجزهَا تَفضل ضِمنَ مَن مَرَّا

❖❖❖

ومِنهم مَن يقولُ: احِسب لها مِن يَومنَا عَشرَا

❖❖❖

ومِثلَ اليومِ رَاجعنَا ولا تَعجلْ بها شَهرا [33]

❖❖❖

وعلى الوتيرة ذاتها تطالعنا هذه اللغة في قصائد من مثل: طلب نجدة [34]- هموم زراعية [35]-الروتين واللوائح [36].

وتتردد أصداء الموت والعجز في قصائد الفقد حيث تنحسر لغة الغضب التي شاعت في البواعث السياسية والاجتماعية؛ لتسري في أبياته نزعة روحية تجد الخلاص في التسليم بقضاء الله وقدره، ففي قصيدة "الأماني المحطمة"[37] التي يومئ عنوانها عن مظاهر الألم والفجيعة، نجد معجم الحزن تشكّل في الألفاظ التالية: طوي -انهد -كرب -نازل-نسكب -الدمع-حيارى -ذاهلان- مفجوعة-تجهش- الثكلى- حزنها- الآهات- حرقًا- الآنات-يدمي-ضاقت - هذيان- مؤمنان-الإيمان.

ومن الظواهر التي شاعت في مثل هذه القصائد، التصريح باسم الفقيد؛ دلالة على حضوره في الذهن وشدة التعلق به، كالتصريح باسمي حفيدي الشاعر (زياد ومعاذ) [38].

(33) ديوان البلبل الأسير، ص47.
(34) السابق، ص20.
(35) السابق، ص56.
(36) السابق، ص69.
(37) السابق، ص78.
(38) ينظر السابق: 80-82.

ISSN : 2410-1818

ويمكن القول إنّ انكفاء الشاعر على ذاته واتخاذه منحى تأملي في ترجمة انفعالاته، أبدى لنا لغة وجدانية غنائية تقف على تخوم معجم رومانسي، من ذلك قصيدته "رسالة إلى القمر"[39]:

ما زَال فِيكَ البَهاءُ الجَمُّ يا قَمرُ والأُنسُ يَنهلُّ مِنهُ الحِسُّ والنَّظرُ

❖❖❖

عِندي كَما كُنتَ تَجلو كُلّ خَاطرةٍ أَتى عَليهَا اكتِئابٌ سَاقَهُ الكَدرُ

❖❖❖

مَا جَنةُ الخُلدِ؟ مَا أَسنى مَبَاهجِهَا؟ إن كانَ حُسنكَ عَن صُوَّانَ يَنتشرُ

❖❖❖

وفيها يقول:

يَهفُو فؤادِي إلى مَرآكَ مُنفردًا لتَملأ القلبَ مِن إيحَائكَ الصُّورُ

❖❖❖

فَأنتَ أنتَ سمِيري كُلما هَجعَت كُل العيونِ وعَيني كَدّها السَّهرُ

❖❖❖

أَهواكَ بَدرًا طَويلَ المُكثِ لا كَدرٌ يَغشى مُحيّاكَ حتى يُنشرَ السَّحرُ

❖❖❖

فالألفاظ التي شاعت في هذه القصيدة من مثل: القمر والسّمر والسّهر والسّحر والغيم، والحب والأشواق والحُسن والمتيّم وغيرها من الألفاظ، كلها تعدّ من مقومات المعجم الرومانسي الذي أشرت إليه سابقًا.

2- الخطابية والتقريرية:

إن تسجيل الوقائع والأحداث، وإلهاب الحس الإسلامي والمجتمعي جعل من الأسلوب الخطابي التقريري سمة غالبة على قصائد الديوان، فهي " تراثية الصياغة، تقريرية النبرة تحتفل بالإيقاع أكثر مما تحتفل بالصورة وإذا جاءت فهي بيانية جزئية"[40]. لقد شاعت مظاهر استخدام الشاعر لأسلوب التكرار الانفعالي؛ إلحاحًا منه على تعزيز أفكاره، واستثارة لعاطفة المتلقي، متكئًا على الاستفهام والنداء والنهي وغيرها من الأساليب الإنشائية، فمن أمثلة ذلك قوله في قصيدة "مجلس الأمن والبوسنة"[41]:

(39) السابق، ص71.

(40) التجربة الشعرية الحديثة في المملكة العربية السعودية، محمد صالح الشنطي، من إصدارات النادي الأدبي بحائل، ط1، ص1062.

(41) ديوان البلبل الأسير، ص54.

ISSN : 2410-1818

أينَ مَن هَبّوا فُرادَى وثُنى أوقَدُوا حَربَ الخليجِ المُنتهْ؟

❖❖❖

لم يَهبّوا مثلمَا هَبّوا هنا أينَ هَاتيكَ الجهودِ المضنيهْ؟

❖❖❖

حَاميَ الإنسانِ من أعدَائهِ هل رَأى الأشلَاءَ تَحتَ الأدخِنهْ؟

❖❖❖

وفي توظيف تكرار النداء نجد دلالات بلاغية وروحية عميقة، تعكس نفسية قلقة ومتأزمة، تعبر عن وطأة المعاناة، وتظهر صدق المشاعر، من ذلك ما نراه في قصيدة "ابتهال"[42] التي اكتظت بنداءات استغاثة وتضرع، طلبًا لرفع البلاء: يا منشئ الكون-يا من يستجار به-يا عالم السر-يا عالم الحال-يا منزل الآي-ربّاه-يا ربّ.

وفي قصيدة (أم الأشبال) [43] ينزع الشاعر إلى أسلوب وجداني ترفده عاطفة جياشة في مناجاة زوجته صبيحة عملية جراحية أجريت له، فيقول:

يا أُمّ أشبَالي وحُبي الأَولِّ باللّه كُلّ تَعلقِي وتَوكلِي

❖❖❖

الصّبرُ أَجدرُ فاصبري وتَحملِي ما يَستجِدُّ مِن الزَّمانِ المُقبلِ

❖❖❖

لم أَكتَرِث يومًا لأيِّ مُصيبةٍ حَلّت ومَا هَذا المصَابُ بأولِ

❖❖❖

وفيها يقول أيضًا:

يا رَبةَ السّكنِ الذي غَادرتهُ إن كَان يَومِي حَائنٌ فَتجَملِي

❖❖❖

فالصّبرُ فِيكِ سَجيةٌ معهودةٌ إن حَلّ مقدُورٌ بما لم تَأملِ

❖❖❖

فإذا مَررتُ بحجرةٍ غادرتهَا وبحاسِبِي وبزرعنَا والجَدولِ

❖❖❖

أَقري السّلامَ جميعهَا عني فمَا غَادرتهَا إلا بليلٍ أليلِ

❖❖❖

(42) السابق، ص 73.

(43) ديوان البلبل الأسير، ص83.

ISSN : 2410-1818

وتَعهدي الأيتامَ بَعدي وافعلِي في حِفظهم ما كُنتِ قبلًا تفعلِ

❖❖❖

نلحظ في الأبيات السابقة امتداد العاطفة وتناميها من خلال تكرار نداء الزوجة، وتأكيد حضورها في وجدان الشاعر، فهي أم أشباله، وهي ربة سكنه، وهي التي أمدته بفيض من الطمأنينة والدفء العاطفي ثم إنّ ياء المخاطبة جسدت حضور الزوجة كطرف حيوي ومؤثر، وهو ما أصبغ على النص بعدًا وجدانيًا خالصًا، فقد تبدت هذه الياءات في مثل قوله: اصبري-تجملي-تأملي-تعهدي-افعلي.

وعطفًا على ما سبق فإنه يمكننا القول إنّ تلوين الخطاب وكثرة الالتفات، وتنوع الأساليب الإنشائية كل ذلك يعد من المظاهر الأسلوبية التي تجلّت في أغلب نصوص الديوان، وهي مظاهر تتناسب مع الأسلوب الخطابي الذي انتحاه الشاعر.

3-استدعاء النصوص الدينية:

يشكل التراث الديني مصدرًا مهمًا من مصادر العوفي في صياغة تجربته الشعرية، مستعينًا به في الإبانة عن مشاعره ورؤاه؛ إذ لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده دون استدعاء للتراث الديني، وقد تجلت هذه الإحالة في ثلاثة مصادر يتقدمها القرآن الكريم ثم الحديث النبوي، وأخيرًا استدعاء الشخصيات الإسلامية وسأكتفي بعرض نموذج لكل مصدر وفق الترتيب السابق، بدءًا من القرآن الكريم الذي استحضره الشاعر على مستوى العنوان كقصيدة " لا يضار كاتب ولا شهيد"[44]، أو على مستوى النص كقوله:

إنهَا تُحرقُ دُنيا سَالمت حيثُ لا تُبقي لهم مِن بَاقيهْ[45]

❖❖❖

واستدعى في إحدى قصائده قول الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها) [46]. يقول الشاعر:

صَدقتَ يا سَيدي المختَار حَالتنَا كقصعةٍ مِن ثَريدٍ حَولها كُثُرُ

❖❖❖

تَداعتِ الأُممُ الأخرَى تُطيفُ بِنا نحنُ الطّعامُ وهُم مِن حَولنَا زمرُ[47]

❖❖❖

(44) ديوان البلبل الأسير، ص49.

(45) السابق، ص10.

(46) مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 37/82.

(47) ديوان البلبل الأسير، ص18

ISSN : 2410-1818

وتعد شخصية الرسول -عليه الصلاة والسلام- من أكثر الشخصيات الإسلامية حضورًا في ديوان الشاعر كما في البيت السابق، بالإضافة إلى استدعاء الصحابة وقادة الفتح الإسلامي عبر التاريخ، فمن الأبيات التي جمعت بين النبي-عليه الصلاة والسلام- وبعض صحابته رضوان الله عليهم، قول الشاعر:

لا سعدَ فيهم مَع الهَادي يهيبُ بنَا ❖❖❖ ولا أبو بكرٍ ينخانَا ولا عمرُ[48]

4- توظيف عناوين القصائد.

يشكل العنوان دورًا مهمًا في بناء القصيدة؛ لكونه عتبة أولى تفضي إلى سبر أغوار النص، وجذب انتباه القارئ" فهو يقدم لنا معرفة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه؛ إذ هو المحور الذي يتوالد ويتسامى ويعيد إنتاج نفسه، وهو الذي يحدد هوية القصيدة، فهو-إن صحت المشابهة- بمثابة الرأس للجسد، والأساس الذي تبنى عليه"[49]. وتمثل عتبة العنونة إحدى مظاهر الحزن التي اتشح بها ديوان البلبل الأسير، مما يعكس تأصل الحزن في وجدان الشاعر، ويسهم في تجلية حالته النفسية، ورؤيته للعالم. لقد أفضت عناوينه إلى خلق توازن جمالي، وإشعار المتلقي بتنوع تجربته الشعرية من خلال تراوحها بين المجاز والمباشرة.

والمتتبع لعتبة العنوان في الديوان يجد أن الشاعر وقف على تخوم الرومانسية في قصيدته (رسالة إلى القمر)[50]وهو ما يمكن عده استثناء خالف فيه طبيعته الكلاسيكية، حيث حمل العنوان في طياته دلالات شعورية تدل على الحزن والعزلة، وكأن القمر هو الملاذ الأخير للبوح بكل ما يعتمل في صدر الشاعر.

وفي قصيدة (البلبل الأسير) التي حملت اسم المجموعة الشعرية يفتح العوفي بابًا للتأويل من خلال وصفه لحياة البلبل قبل أسره كرمز للجمال والحرية، ثم معاناته تحت وطأة الكبت والقيد، وعجزه عن تحمل السجن حتى فاضت روحه كآبة وغمًا. ويتبدى النزوع إلى العناوين المشحونة بالشجن العاطفي في بعض قصائد الفقد، كقصيدة بعنوان (الانتظار الحزين) حيث ينطوي الانتظار على دلالة الترقب والتوجس والقلق، ووصفه بالحزين أضفى عليه شعورًا بالحسرة وخيبة الأمل، وغير بعيد عن ذلك قصيدة بعنوان (الأماني المحطمة).

فإذا تجاوزنا هذه العناوين إلى القصائد التي تطرقت إلى القضايا الإسلامية نجد نزعة الحزن قد امتزجت بنفس ديني أو عاطفة مشبوبة بالغضب، فقصيدة (شكوى إلى الله) تحمل طابعًا روحيًا يبرز

(48) السابق، ص18.
(49) دينامية النص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط1، ص 72.
(50) ديوان البلبل الأسير، ص71.

ISSN : 2410-1818

رغبة الشاعر في اللجوء إلى القوة العليا؛ طلبًا للعون، وإظهارًا للضعف والعجز فليس ثمة قدرة على تحمل مشاهد الدمار والبؤس التي اجتاحت الأمة الإسلامية، وليس ثمة جدوى من البوح للبشر أو عقد الآمال عليهم ففداحة الأحداث تستدعي اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى والتضرع إليه لرفع المعاناة ودفع الضرر. وما سبق ينطبق كذلك على قصيدة تحمل عنوان(ابتهال). ومن العناوين ذات الطابع الديني-أيضًا- قصيدة بعنوان (لا يضار كاتب ولا شهيد) وهو اقتباس قرآني كما هو معلوم.

إنّ النبرة الاحتجاجية الغاضبة تجلت بشكل بارز في القصائد ذات البواعث السياسية، فمن ذلك على سبيل المثال قصيدة بعنوان (حتى النمل يذود عن وطنه) فالعنوان يقوم على التقريع وإثارة شعور الحرج لدى القارئ؛ إذ يعتمد على المقارنة بين هذه الكائنات الصغيرة التي يضرب بها المثل في الدفاع ببسالة وتضحية عن مستعمراتها وبين أمة عظيمة تمتلك كل مقومات الدفاع عن وجودها وإرادتها، ولكنها تخاذلت واستسلمت لعدوها دون أدنى مقاومة. لقد استخدم الشاعر في هذا العنوان نبرة خطابية قوية تدعو المجتمع الإسلامي إلى التضحية والتكاتف واستعادة كرامتهم المسلوبة.

وتتجدد هذه النبرة في قصيدة بعنوان (الديمقراطية الرّعناء) حيث يحمل العنوان في طياته نقدًا لاذعًا للديمقراطية الأمريكية التي اتخذت من هذا النظام أداة لإثارة الفوضى وذريعة لتحقيق مآربها السياسية بغية فرض هيمنتها على العالم بأسره. وتعلو لغة الاحتجاج والغضب قصائد أخرى من مثل: (مجلس الأمن والبوسنة) و(محرقة النازي الجديدة).

ومن العناوين التي خلقت تناقضًا جماليًا يجمع بين الأدب في صورته المرتبطة بالظهور والانتشار وبين الظل في تجسيده للعزلة والخفاء، قصيدة بعنوان (أدباء الظل) وهي قصيدة تصور صراع الأدباء المبدعين مع الإهمال وعدم التقدير. وفي السياق ذاته يلجأ الشاعر مرة أخرى إلى صياغة هذا التناقض؛ ليعكس مأساة الأدباء والمثقفين، ويوحي باختلال القيم والأولويات التي تتعلق بتقديم الترفيه لاسيما كرة القدم على الثقافة والفكر والأدب، وذلك في قصيدته التي جاءت بعنوان (ظهور آفة وموت ثقافة).

ويمكن القول إنّ ثمة عناوين تتوخى المباشرة والوضوح، والقصدية في الإفصاح عن مضمون النص فكانت بمنأى عن الإيحاء والصنعة؛ بغية تهيئة القارئ للتلقي دون إعمال للذهن حتى تصل الرسالة بأقصر الطرق وأوضحها، وهذه العناوين غالبًا ما تكون مرتبطة بقضايا اجتماعية، فمن هذه القصائد على سبيل المثال قصيدة بعنوان(السيارة) و (شكوى ضد الحاسب الآلي) و(هموم زراعية) وغيرها من القصائد التي أولت وضوح الموقف دون مواربة أو تلميح عناية فائقة سعيًا لإحداث تغيير مباشر.

وخلاصة القول إنّ عتبة العنونة لعبت دورًا رئيسًا في بلورة نزعة الحزن التي طغت على نصوص الديوان وتعزيز التأثير العاطفي على المتلقي؛ مما جعل منها مفتاحًا لإدراك هذه النزعة، فضلًا عن تمكن الشاعر من تحقيق توازن جمالي في صياغتها من خلال تراوحها بين المباشرة والمجاز.

ISSN : 2410-1818

الخاتمة

الحمد لله الذي يسّر وأعان، وبعد: فقد حاول الباحث الإلمام بنزعة الحزن في ديوان البلبل الأسير واستكشاف البواعث النفسية والسمات الفنية، وخرج منه بعدة نتائج، من أهمها:

1- تعددت بواعث الحزن في ديوان (البلبل الأسير) نتيجة لعوامل سياسية، واجتماعية، وذاتية.

2- أبانت الدراسة عن التصاق الشاعر بمجتمعه ووعيه بمسؤوليته المجتمعية، ورغبته الملحة نحو التغيير والإصلاح.

3- اتسمت لغة الديوان بالسهولة والقرب، فهي قريبة المأخذ لا يجد قارئها عنتًا في فهمها واستبطان معانيها، فضلًا عن اتصالها بمعجم تراثي يقوم على جزالة اللفظ وقوة الجرس.

4- انتهج الشاعر الأسلوب الخطابي في معالجة القضايا السياسية والاجتماعية رغبة منه في توثيق الأحداث، وإيقاظ الوعي، واستنهاض الهمم.

5- يشكل التراث الديني مصدرًا مهمًا من مصادر تجربة العوفي الشعرية.

6- تمكن الشاعر من تحقيق توازن جمالي في عتبة العنونة؛ إذ تراوحت صياغتها بين المباشرة والمجاز.

وفي الختام أوصي الباحثين بالنظر في تجربة الشاعر؛ لا سيما في ديوانه (على مدارج الزمن) الذي ظل بمنأى عن دراسة الباحثين، والحمد لله أولًا وآخرًا.

ISSN : 2410-1818

المصادر والمراجع:

- الأدب العربي الحديث، محمد صالح الشنطي، دار الأندلس، ط5.
- التجربة الشعرية الحديثة في المملكة العربية السعودية، محمد صالح الشنطي، من إصدارات النادي الأدبي بحائل، ط1.
- التفسير العلمي للأدب: نحو نظرية علمية جديدة، نبيل راغب، المركز الثقافي الجامعي.
- دراسات في الشعر العربي المعاصر، شوقي ضيف، دار المعارف، ط7.
- دينامية النص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط1.
- ديوان البلبل الأسير، سعد بن سعيد العوفي، ط1، 1440هـ.
- الشعر العربي المعاصر، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط3.
- صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب، دار ابن كثير، ط5.
- الكليّات، لأبي البقاء الكفوي، اعتنى به: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط2.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط6.
- مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1.
- مسيرة على الأشواك، سعد العوفي، 1438هـ.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبيا، الشركة العالمية للكتاب، 1994م.
- النزعة الإنسانية في شعر سعد العوفي الرؤية والتشكيل الفني، عبدالرحمن دخيل ربه المطرفي، مجلة القراءة والمعرفة، العدد199، 2018م.